مجموعة القصص الدينية

بإشراف محمد أحمد برانق



١٠

أَصْحَابُ الفِيل

دار المعارف بمصر

مجموعة القصص الدينية

(١٠)

بإشراف

محمد أحمد برانق

أصحاب الفيل

الطبعة الحادية عشرة

دار المعارف

١

كَانَ فِيمَنْ مَلَكَ الْيَمَنَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالتَّبَابِعَةِ تُبَّعٌ اسْمُهُ رَبِيعَةُ ابْنُ نَصْرٍ مِنْ سُلَالَةِ بَنِي كَهْلَانَ بْنِ سَبَأٍ ؛ وَكَانَ مُلْكُهُ بَعْدَ انْهِيَارِ سَدِّ مَأْرِبَ الَّذِي بَنَاهُ الْمَلِكُ سَبَأُ بْنُ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ لِحَجْزِ مِيَاهِ الْأَمْطَارِ ، وَخَزْنِهَا لِتَصْرِيفِهَا فِي شَتَّى أَنْحَاءِ الْيَمَنِ ، فَظَلَّ يُرْوِي أَرْضَهَا مِئَاتِ السِّنِينَ ، حَتَّى شَاءَ اللهُ أَنْ يَنْهَارَ فَانْهَارَ.

وَبِانْهِيَارِ سَدِّ مَأْرِبَ هٰذَا تَفَرَّقَتْ قَبَائِلُ الْيَمَنِ شَذَرَ مَذَرَ : فَمِنْهَا مَنْ هَاجَرَ إِلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ أَرْضِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَمِنْهَا مَنْ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ بِأَرْضِ الْيَمَنِ . ثُمَّ كَانَ أَنْ تَوَلَّى رَبِيعَةُ ابْنُ نَصْرٍ مُلْكَ الْيَمَنِ .

وَذَاتَ لَيْلَةٍ رَأَى رَبِيعَةُ هٰذَا فِي نَوْمِهِ رُؤْيَا أَفْزَعَتْهُ وَأَرْعَبَتْهُ ، وَجَعَلَتْهُ يَهُبُّ مِنْ نَوْمِهِ وَقَدِ امْتَلَأَ قَلْبُهُ خَوْفًا وَجَزَعًا ! ! . وَلَمْ يَجِدِ النَّوْمُ إِلَى عَيْنَيِ الْمَلِكِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مِنْ سَبِيلٍ ؛ فَقَدْ قَضَى الْمَلِكُ بَقِيَّةَ لَيْلِهِ أَرِقًا مُسَهَّدًا ، لَا يَسْكُنُ لَهُ جَنْبٌ ، وَلَا تَغْمُضُ

لَهُ عَيْنٌ ، وَلا يَقِرُّ لَهُ قَرَارٌ ؛ حَتَّى إِذَا مَا انْبَلَجَ عَلَيْهِ نُورُ الصَّبَاحِ أَرْسَلَ إِلَى رِجَالِ قَصْرِهِ يَقُولُ : ائْتُونِي بِكُلِّ عَرَّافٍ ، وَمُفَسِّرٍ لِلأَحْلَامِ ، وَكَاهِنٍ ، فِي الْحَالِ .

وَفِي الْحَالِ مَثَلَ الْعَرَّافُونَ وَالْمُفَسِّرُونَ لِلأَحْلَامِ ، وَالْكَهَنَةُ ، الَّذِينَ بِالْمَدِينَةِ بَيْنَ يَدَي الْمَلِكِ الَّذِي قَالَ : أُرِيدُ مِنْكُمْ أَنْ تُعَرِّفُونِي تَفْسِيرَ رُؤْيَا رَأَيْتُهَا اللَّيْلَةَ ، هَالَتْنِي وَأَزْعَجَتْنِي !

قَالُوا : سَمْعاً وَطَاعَةً يَا مَوْلَانَا ؛ اُقْصُصْ رُؤْيَاكَ هٰذِهِ ، وَنَحْنُ نُفَسِّرُهَا ، وَنَشْرَحُ لَكَ تَأْوِيلَهَا .

قَالَ الْمَلِكُ : إِنِّي لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ بِهَا لَمْ أَطْمَئِنَّ إِلَى تَأْوِيلِكُمْ لَهَا ، وَتَفْسِيرِكُمْ إِيَّاهَا ، فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ تَفْسِيرَهَا إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا قَبْلَ أَنْ أُخْبِرَهُ بِهَا .

وَنَظَرَ الْعَرَّافُونَ وَالْمُفَسِّرُونَ وَالْكَهَنَةُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَيَارَى مِنْ قَوْلِ الْمَلِكِ ، فَكَيْفَ لَهُمْ بِتَفْسِيرِ الرُّؤْيَا وَهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا مَضْمُونَهَا ، وَلَمْ يَقِفُوا عَلَى خَبَرِهَا . . . ! !

وَسَادَ الصَّمْتُ بُرْهَةً يَتَدَبَّرُ كُلٌّ مِنْهُمُ الأَمْرَ فِي ذِهْنِهِ ،

وَأَخِيرًا قَالَ بَعْضُ الْكَهَنَةِ :

أَيُّهَا الْمَلِكُ ؛ إِنَّ مَا تَوَدُّ مَعْرِفَتَهُ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الْكَاهِنَانِ شَقٌّ وَسَطِيحٌ ، فَهُمَا أَعْلَمُ أَهْلِ الْيَمَنِ — بَلْ أَهْلِ الْأَرْضِ — بِعِلْمِ الْكَهَانَةِ ؛ وَهُمَا اللَّذَانِ سَوْفَ يُلَبِّيَانِ أَمْرَكَ ، وَيُعَرِّفَانِكَ مَا تَوَدُّ مَعْرِفَتَهُ مِنْ إِخْبَارِكَ بِمَا رَأَيْتَ فِي نَوْمِكَ ، وَمِنْ تَأْوِيلِهِ لَكَ .

قَالَ الْمَلِكُ : إِذَنْ ، إِلَيَّ بِشَقٍّ وَسَطِيحٍ الْكَاهِنَيْنِ .

وَفِي الْحَالِ صَدَرَ أَمْرُ الْمَلِكِ بِاسْتِدْعَاءِ شَقٍّ وَسَطِيحٍ ، وَتَفَرَّقَ الرُّسُلُ فِي أَرْجَاءِ الْيَمَنِ فِي طَلَبِهِمَا .

وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى أَتَى الرُّسُلُ بِسَطِيحٍ ، وَكَانَ رَجُلًا قَصِيرَ الْأَطْرَافِ ، مُنْبَعِجَ الْبَطْنِ ، مُسَطَّحَ الصَّدْرِ وَالرَّأْسِ ، لَا مَعَالِمَ لَهُ ظَاهِرَةٌ فِي وَجْهِهِ . فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ قَالَ لَهُ :

إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْيَا هَالَتْنِي وَأَفْزَعَتْنِي وَأَرَّقَتْنِي ؛ فَأَخْبِرْنِي بِهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ أَصَبْتَهَا أَصَبْتَ تَأْوِيلَهَا . قَالَ سَطِيحٌ :

نَعَمْ ؛ سَأُخْبِرُكَ ! لَقَدْ رَأَيْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حُمَمَةً (هِيَ الْفَحْمَةُ

الْمُشْتَعِلَةُ) خَرَجَتْ مِنْ أَرْضِ ظُلْمَةٍ، فَوَقَعَتْ بِأَرْضٍ تُهَمَةٍ ، (الْأَرْضُ الْقَرِيبَةُ مِنَ الْبَحْرِ) ؛ فَأَكَلَتْ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ جُمْجُمَةٍ (كُلَّ ذَاتِ رُوحٍ وَحَيَاةٍ) . فَظَهَرَ الارْتِيَاحُ عَلَى وَجْهِ الْمَلِكِ ، وَقَالَ لِسَطِيحٍ : نَعَمْ ؛ هٰذِهِ هِيَ رُؤْيَايَ ، مَا أَخْطَأْتَ مِنْهَا شَيْئًا يَا سَطِيحُ ؛ فَمَا عِنْدَكَ فِي تَأْوِيلِهَا ؟

أَجَابَ : أُقْسِمُ بِمَا بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ (مَكَانَيْنِ مِنَ الْأَرْضِ) مِنْ حَنَشٍ ، لَتَهْبِطَنَّ أَرْضَكُمُ الْحَبَشُ ، فَلَيَمْلِكُنَّ مَا بَيْنَ أَبْيَنَ إِلَى جُرَشَ (مَكَانَانِ مُتَبَاعِدَانِ بِأَطْرَافِ الْيَمَنِ) .

قَالَ الْمَلِكُ جَزِعًا : وَأَبِيكَ يَا سَطِيحُ ! أَلَيْسَ هٰذَا لَنَا بِغَائِظٍ مُوجِعٍ ؟ ! ! أَخْبِرْنِي : مَتَى يَكُونُ هٰذَا ؟ أَهُوَ كَائِنٌ فِي زَمَانِي أَمْ وَاقِعٌ بَعْدَهُ ؟ !

قَالَ سَطِيحٌ : بَلْ بَعْدَهُ بِحِينٍ ، أَكْثَرَ مِنْ سِتِّينَ أَوْ سَبْعِينَ ، يَمْضِينَ مِنَ السِّنِينَ .

سَأَلَ الْمَلِكُ سَطِيحًا :

أَفَيَدُومُ ذٰلِكَ الْمُلْكُ فِي الْحَبَشِ أَمْ يَنْقَطِعُ ؟ !

أَجَابَ سَطِيحٌ : لَا . بَلْ يَنْقَطِعُ لِبِضْعٍ وَسَبْعِينَ مِنَ السِّنِينَ ، ثُمَّ يُقْتَلُونَ وَيَخْرُجُونَ مِنْهَا هَارِبِينَ .

سَأَلَ الْمَلِكُ :

وَمَنْ يَلِي ذٰلِكَ مِنْ قَتْلِهِمْ وَإِخْرَاجِهِمْ ؟

قَالَ سَطِيحٌ : يَلِيهِ وَلَدٌ مِنْ أَبْنَاءِ ذِي يَزَنَ ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَدَنَ ، فَلَا يُتْرَكُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِالْيَمَنِ .

قَالَ الْمَلِكُ : أَفَيَدُومُ ذٰلِكَ مِنْ سُلْطَانِهِ ؟

قَالَ سَطِيحٌ : لَا . بَلْ يَنْقَطِعُ .

سَأَلَ الْمَلِكُ : وَمَنْ يَقْطَعُهُ ؟

قَالَ سَطِيحٌ : نَبِيٌّ ذَكِيٌّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ الْعَلِيِّ .

قَالَ الْمَلِكُ : وَمِمَّنْ هٰذَا النَّبِيُّ ؟

قَالَ سَطِيحٌ :

رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ ، يَكُونُ الْمُلْكُ فِي قَوْمِهِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ .

عِنْدَئِذٍ قَالَ الْمَلِكُ : وَهَلْ لِلدَّهْرِ مِنْ آخِرٍ ؟

أَجَابَ : نَعَمْ ؛ آخِرُهُ يَوْمٌ يُجْمَعُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ ، يَوْمٌ يَسْعَدُ فِيهِ الْمُحْسِنُونَ ، وَيَشْقَى فِيهِ الْمُسِيئُونَ .

قَالَ الْمَلِكُ : أَحَقٌّ مَا تُخْبِرُنِي يَا سَطِيحُ ؟

قَالَ سَطِيحٌ : نَعَمْ وَالشَّفَقِ وَالْغَسَقِ ، إِنَّ مَا أَنْبَأْتُكَ بِهِ لَحَقٌّ !

وَانْصَرَفَ سَطِيحٌ مِنْ حَضْرَةِ الْمَلِكِ لِيَقِفَ شَقٌّ مَكَانَهُ ، وَكَانَ شَقٌّ هٰذَا رَجُلًا شَاذَّ الْخِلْقَةِ ، نَحِيفًا عَجِيفًا ، كَأَنَّهُ رَجُلٌ قَدْ شُقَّ إِلَى نِصْفَيْنِ ؛ فَسَأَلَهُ الْمَلِكُ مَا سَأَلَ سَطِيحًا مِنْ قَبْلُ عَنْ رُؤْيَاهُ دُونَ أَنْ يُعَرِّفَهُ مَا كَانَ مِنْ سَطِيحٍ ، وَلَا بِمَا أَخْبَرَهُ بِهِ .

فَقَالَ شَقٌّ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ؛ لَقَدْ رَأَيْتَ فِي نَوْمِكَ حُمَمَةً ، خَرَجَتْ مِنْ أَرْضٍ ظُلَمَةٍ ، فَوَقَعَتْ بَيْنَ رَوْضَةٍ وَأَكَمَةٍ ، مِنْهَا كُلُّ ذَاتِ نَسَمَةٍ .

عِنْدَئِذٍ وَقَعَ فِي نَفْسِ الْمَلِكِ الْعَجَبُ لِاتِّفَاقِ الْمَعْنَى فِي كَلَامِ الْكَاهِنَيْنِ : سَطِيحٍ وَشَقٍّ ، وَدَهِشَ لِمَعْرِفَةِ كُلٍّ مِنْهُمَا عَلَى حِدَةٍ كُنْهَ رُؤْيَاهُ ، وَحَقِيقَةَ حُلْمِهِ .

وَسَأَلَ الْمَلِكُ شَقًّا عَنْ تَفْسِيرِ رُؤْيَاهُ ، فَكَانَتْ إِجَابَةُ شَقٍّ

لِلْمَلِكِ عَنْ ذٰلِكَ لَا تَخْرُجُ عَمَّا أَجَابَ بِهِ سَطِيحٌ الْمَلِكَ مِنْ قَبْلُ !

وَأَيْقَنَ الْمَلِكُ أَنَّ رُؤْيَاهُ صَادِقَةٌ ، وَأَنَّ الْحَبَشَ سَيَعْبُرُونَ يَوْمًا مَا بَحْرَ الْقُلْزُمِ إِلَى الْيَمَنِ فَيَحْتَلُّونَهُ ، وَيَمْلِكُونَهُ ، وَيَأْسِرُونَ مُلُوكَهُ ، وَيُذِلُّونَ أَهْلَهُ !

وَفَكَّرَ الْمَلِكُ فِيمَا يَفْعَلُ .

فَرَأَى أَنَّ هٰذَا الْيَوْمَ الَّذِى سَوْفَ يَحْدُثُ فِيهِ مَا أَخْبَرَهُ بِهِ الْكَاهِنَانِ يَوْمٌ بَعِيدٌ عَنْ يَوْمِهِ هٰذَا . وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَنَلْ مِنْهُ أَحَدٌ ، فَإِنَّهُ سَيَنَالُ مِنْ أَوْلَادِهِ ، أَوْ أَحْفَادِهِ ، فَيَأْسِرُهُمُ الْحَبَشُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَيَأْخُذُونَهُمْ سَبَايَا أَذِلَّاءَ ، فَمَاذَا يَفْعَلُ لِتَأْمِينِ حَيَاةِ أَوْلَادِهِ وَأَحْفَادِهِ مِنْ بَعْدِهِ ؟ وَمَاذَا يَفْعَلُ حِيَالَ أَهْلِ الْيَمَنِ ؟ !

وَقَضَى الْمَلِكُ رَبِيعَةُ بْنُ نَصْرٍ أَيَّامًا وَلَيَالِىَ لَا يَشْغَلُهُ فِى نَهَارِهِ وَفِى لَيْلِهِ غَيْرُ شَىْءٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ كَيْفَ يَتَّقِى غَزْوَةَ الْحَبَشِ ضِدَّ الْيَمَنِ ؟ !

وَأَخِيرًا لَمْ يَجِدْ فِى وُسْعِهِ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا سِوَى أَنْ يُرْسِلَ بِأَوْلَادِهِ وَأَحْفَادِهِ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ يَتَّخِذُونَ لَهُمْ مِنْهُ مَوْطِنًا

آخرَ ، وَيُقِيمُونَ لَهُمْ فِيهِ سَكَناً جَدِيداً .

فَجَهَّزَ أَهْلَ بَيْتِهِ جَمِيعاً بِمَا يَلْزَمُهُمْ وَيُصْلِحُ حَالَهُمْ فِي سَفَرَتِهِمْ وَغُرْبَتِهِمْ ، ثُمَّ أَرْسَلَهُمْ إِلَى الْعِرَاقِ وَكَتَبَ بِشَأْنِهِمْ إِلَى مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ فَارِسَ اسْمُهُ : سَابُورُ بْنُ خُرَّزَادَ ، وَأَوْصَاهُ بِهِمْ خَيْرًا ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى سَابُورَ ، أَنْزَلَهُمْ بِالْحِيرَةِ مِنْ أَطْرَافِ الْعِرَاقِ .

وَظَلَّ رَبِيعَةُ بْنُ نَصْرٍ عَلَى حُكْمِ الْيَمَنِ حَتَّى مَاتَ ، فَرَجَعَ الْمُلْكُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ مِنْ بَنِي حِمْيَرَ بْنِ سَبَأ ، وَظَلَّ فِيهِمُ السِّنِينَ حَتَّى اسْتَوْلَى عَلَيْهِ رَجُلٌ فَاسِقٌ مِنْ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ اسْمُهُ لَخْنِيعَةُ ذُوشَنَاتِرَ ؛ فَقَسَا عَلَى الشَّعْبِ ، وَأَذَلَّ أَبْنَاءَ الْمُلُوكِ مِنْ بَنِي حِمْيَرٍ . وَظَلَّ هٰذَا حَالَهُ حَتَّى خَلَّصَ هٰؤُلَاءِ وَهٰؤُلَاءِ مِنْهُ غُلَامٌ مِنْ أَبْنَاءِ مُلُوكِ بَنِي حِمْيَرٍ اسْمُهُ زُرْعَةُ بْنُ تُبَّانَ أَسْعَدَ ، وَذٰلِكَ بِأَنْ تَحَايَلَ عَلَى قَتْلِهِ بِحِيلَةٍ جَرِيئَةٍ بَارِعَةٍ .

وَمَلَكَ زُرْعَةُ الْيَمَنَ ، وَعُرِفَ بِذِي نُوَاسٍ ، لِأَنَّهُ كَانَ لَهُ جَدَائِلُ مِنَ الشَّعْرِ تَنُوسُ فَوْقَ جَبْهَتِهِ وَوَجْهِهِ . وَدَانَ ذُو نُوَاسٍ بِدِينِ الْيَهُودِيَّةِ ، وَتَعَصَّبَ لَهَا ، وَكَرِهَ مَنْ خَالَفَهُ فِيهَا .

وَكَانَتْ نَجْرَانُ — وَتَقَعُ فِى شَمَالِ الْيَمَنِ — قَدْ دَانَتْ بِدِينِ النَّصْرَانِيَّةِ الْأُولَى ، فَلَمْ يَرْضَ ذٰلِكَ ذَا نُوَاسٍ ، فَسَارَ بِجَيْشِهِ وَرِجَالِهِ إِلَى أَهْلِ نَجْرَانَ ، وَخَيَّرَهُمْ بَيْنَ الرُّجُوعِ عَنْ دِينِهِمْ أَوْ إِحْرَاقِهِمْ بِالنَّارِ . فَاخْتَارَ أَكْثَرُهُمْ أَنْ يُحْرَقُوا بِالنَّارِ عَلَى أَنْ يَرْتَدُّوا عَنْ دِينِهِمْ ، فَخَدَّ لَهُمْ أُخْدُودًا فِى الْأَرْضِ ، وَمَلَأَهُ بِالْحَطَبِ ، وَأَحْرَقَهُمْ فِيهِ .

وَاسْتَطَاعَ الْفِرَارَ مِنَ الْمَحْرَقَةِ ، وَالْهَرَبَ إِلَى خَارِجِ الْبِلَادِ — رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِدِينِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ اسْمُهُ دَوْسُ ذُو ثَعْلَبَانَ ، فَسَارَ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ ، يَبْغِى الِاسْتِنْجَادَ بِنَجَاشِىِّ الْحَبَشَةِ ، وَبِقَيْصَرِ الرُّومِ ، لِيَنْصُرَا الْمَسِيحِيَّةَ الَّتِى أَبَاحَ دَمَ أَهْلِهَا بِنَجْرَانَ مَلِكُ الْيَمَنِ ذُو نُوَاسٍ .

٢

وَاسْتَطَاعَ دَوْسٌ ذُو ثَعْلَبَانَ أَنْ يَجْتَازَ بَحْرَ الْقُلْزُمِ ، وَأَنْ يَصِلَ إِلَى نَجَاشِيِّ الْحَبَشَةِ ، لِيَرْفَعَ لَهُ ظُلَامَتَهُ مِمَّا فَعَلَ تُبَّعُ الْيَمَنِ ذُو نُوَاسٍ بِأَهْلِ نَجْرَانَ ، وَيُسْمِعَهُ صَرْخَةَ الَّذِينَ اضْطُهِدُوا حَتَّى ارْتَدُّوا عَنْ دِينِهِمْ ، وَذَهَبَ بَقِيَّتُهُمْ مِنَ الَّذِينَ أَبَوْا الِارْتِدَادَ طُعْمَةً لِلنِّيرَانِ .

وَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ لِاضْطِهَادِ الْمَسِيحِيِّينَ وَحَرْقِهِمْ ، وَنَقَمَ أَشَدَّ النِّقْمَةِ عَلَى تُبَّعِ الْيَمَنِ ذِي نُوَاسٍ ؛ وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُعَبِّئَ جَيْشًا مِنَ الْحَبَشِ لِمُقَاتَلَتِهِ لِقِلَّةِ السُّفُنِ الَّتِي تَعْبُرُ بِالْمُقَاتِلِينَ الْبَحْرَ مِنَ الْحَبَشَةِ إِلَى الْيَمَنِ ، فَلَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ مِنْهَا إِلَّا عَدَدًا قَلِيلاً ، فَاعْتَذَرَ لِدَوْسٍ ذِي ثَعْلَبَانَ عَنْ عَدَمِ إِمْكَانِهِ السَّيْرَ إِلَى ذِي نُوَاسٍ لِمُحَارَبَتِهِ ، وَبَيَّنَ لَهُ السَّبَبَ .

وَلٰكِنَّ دَوْسًا لَمْ تَفْتُرْ عَزِيمَتُهُ عَنْ تَأْلِيبِ الْمُلُوكِ ، وَحَضِّهِمْ عَلَى الِانْتِقَامِ لِأَهْلِ نَجْرَانَ مِنْ ذِي نُوَاسٍ ، فَسَارَ حَتَّى

وَصَلَ إِلَى قَيْصَرِ الرُّومِ يَبْغِي مَعُونَتَهُ .

وَاسْتَمَعَ قَيْصَرُ الرُّومِ لِمَقَالَةِ دَوْسٍ ، وَغَضِبَ لِمَا نَالَ الْمَسِيحِيَّةَ وَالْمَسِيحِيِّينَ مِنْ أَذًى عَلَى يَدِ ذِي نُوَاسٍ ، فَقَالَ لِدَوْسٍ :

وَدِدْتُ لَوْ بَعَثْتُ مَعَكَ بِجُنُودِي ، وَلَٰكِنَّ بِلَادَكَ بَعِيدَةٌ عَنَّا ؛ سَأَكْتُبُ لَكَ إِلَى نَجَاشِيِّ الْحَبَشَةِ ، فَبِلَادُهُ قَرِيبَةٌ مِنْ بِلَادِكَ ، لِيَمُدَّكَ بِالْجُنُودِ ، وَسَأُرْسِلُ لَهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي نَقْلِهِمْ مِنَ السُّفُنِ . فَشَكَرَ دَوْسٌ قَيْصَرَ الرُّومِ ، وَعَادَ إِلَى نَجَاشِيِّ الْحَبَشَةِ لِيُتِمَّ لَدَيْهِ مَسْعَاهُ .

وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى كَانَتْ مَسَاعِي دَوْسٍ قَدْ كُلِّلَتْ بِالنَّجَاحِ ، وَكَانَتْ جُنُودُ الْحَبَشِ قَدْ جُهِّزَتْ بِجِهَازِ الْحَرْبِ ، وَعُبِّئَتْ بِالسُّفُنِ الَّتِي أَرْسَلَهَا قَيْصَرُ الرُّومِ ، فَسَارَتْ بِهَا عَبْرَ بَحْرِ الْقُلْزُمِ لِغَزْوِ الْيَمَنِ .

وَلَمْ يَدْرِ أَهْلُ الْيَمَنِ بِمَا أُعِدَّ لَهُمْ ، وَلَمْ يَشْعُرْ ذُو نُوَاسٍ بِمَا خُبِّئَ لَهُ ، فَمَا أَحَسُّوا إِلَّا جُنُودَ الْحَبَشِ تَتَسَاقَطُ عَلَى سَاحِلِ

الْيَمَنِ كَأَسْرَابِ الْجَرَادِ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ قَائِدٌ طَوِيلٌ أَسْوَدُ يُنَادِيهِ جُنُودُهُ بِاسْمِ أَرْيَاطَ .

وَعَمَّ الذُّعْرُ أَهْلَ الْيَمَنِ ، وَأُسْقِطَ فِي يَدِ ذِي نُوَاسٍ ، فَأَهَابَ بِجُنُودِهِ يَدْعُوهُمْ لِمُقَاتَلَةِ الْوَافِدِينَ ، وَدَعَا بِرِجَالِ الْقَبَائِلِ يَحُثُّهُمْ عَلَى جَمْعِ الرِّجَالِ وَالْعَتَادِ لِمُعَاوَنَتِهِ وَمُسَاعَدَةِ الْمُقَاتِلِينَ . وَسَارَ هُوَ عَلَى رَأْسِ جَيْشِهِ لِرَدِّ عُدْوَانِ هٰؤُلَاءِ الْمُعْتَدِينَ .

وَلٰكِنَّ الْبَغْتَةَ كَانَ لَهَا مَا لَهَا مِنَ الْأَثَرِ فِي نُفُوسِ رِجَالِ الْيَمَنِ ، وَكَانَ لَهَا مَا لَهَا فِي تَجْهِيزِهِمْ وَإِعْدَادِهِمْ . فَسُرْعَانَ مَا هُزِمَ الْجَيْشُ الْيَمَنِيُّ ، وَسُرْعَانَ مَا جَعَلُوهُمْ يَرْتَدُّونَ مُتَفَرِّقِينَ هَارِبِينَ .

وَرَأَى ذُو نُوَاسٍ مَا حَلَّ بِجُنُودِهِ ، وَقَدَّرَ مَا سَوْفَ يَحِلُّ بِهِ وَبِأَهْلِ الْيَمَنِ ؛ فَوَجَّه فَرَسَهُ نَحْوَ الْبَحْرِ ، ثُمَّ هَمَزَهُ فِي جَنْبِهِ هَمْزَةً قَوِيَّةً ، فَدَخَلَ الْفَرَسُ يَخُوضُ ضَحْضَاحَ الْبَحْرِ حَتَّى أَفْضَى بِهِ إِلَى غَمْرِهِ ، فَلَكَزَهُ ذُو نُوَاسٍ لَكْزَةً

أُخْرَى ، فَدَخَلَ بِهِ إِلَى غَرِيقِ الْبَحْرِ حَيْثُ ابْتَلَعَتْهُمَا الْأَمْوَاجُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ؛ فَكَانَ هٰذَا آخِرَ الْعَهْدِ بِذِي نُوَاسٍ ، كَمَا كَانَ آخِرَ الْعَهْدِ بِمُلُوكِ بَنِي حِمْيَرَ وَتَبَابِعَتِهِمْ .

وَدَخَلَ أَرْيَاطُ بِجُنُودِهِ ، فَاسْتَوْلَى عَلَى الْيَمَنِ بِاسْمِ نَجَاشِيِّ الْحَبَشَةِ ، وَهَدَمَ كَثِيرًا مِنْ مَبَانِيهَا : مِنْ بَيْنِهَا حُصُونُ مُلُوكِهَا الشَّهِيرَةُ ، وَالَّتِي كَانَ مِنْ بَيْنِهَا حِصْنُ غُمْدَانَ ، وَأَخْرَجَ مِنْهَا مَنْ تَحَصَّنُوا فِيهَا ، وَسَبَى أَبْنَاءَ الْمُلُوكِ وَكِبَارَ الرِّجَالِ مِنْ بَنِي حِمْيَرَ ، وَأَرْسَلَ بِثُلُثِ هٰؤُلَاءِ السَّبَايَا إِلَى مَلِكِ الْحَبَشَةِ ، وَكَانَ قَدْ عَاهَدَهُ عَلَى ذٰلِكَ إِذَا مَا تَمَّ لَهُ غَزْوُ الْيَمَنِ ، وَاسْتَتَبَّ لَهُ الْأَمْرُ فِيهَا .

وَهٰكَذَا غَزَا الْحَبَشُ الْيَمَنَ ، وَهٰكَذَا صَحَّتْ بَعْدَ مُرُورِ السِّنِينَ الطَّوِيلَةِ رُؤْيَا الْمَلِكِ رَبِيعَةَ بْنِ نَصْرٍ ، وَتَحَقَّقَتْ نُبُوءَةُ الْكَاهِنَيْنِ شِقٍّ وَسَطِيحٍ !!

وَأَقَامَ أَرْيَاطُ بِالْيَمَنِ سِنِينَ فِى سُلْطَانِهِ هٰذَا ، وَذَاقَتِ ٱلْيَمَنُ فِى زَمَنِهِ ذُلَّ الِاحْتِلَالِ ، وَمَرَارَةَ الْأَسْرِ ؛ ثُمَّ انْتَهَى عَهْدُ الْقَائِدِ أَرْيَاطَ لِيَحُلَّ مَحَلَّهُ عَهْدُ الْقَائِدِ أَبْرَهَةَ .

كَانَ أَبْرَهَةُ قَائِدًا عَلَى رَأْسِ فَرِيقٍ مِنْ جُنُودِ الْحَبَشِ تَحْتَ قِيَادَةِ أَرْيَاطَ ، فَنَازَعَ أَرْيَاطَ عَلَى حُكْمِ الْيَمَنِ ، وَتَبِعَهُ مَا تَحْتَ إِمْرَتِهِ مِنَ الْجُنُودِ ، وَبِذٰلِكَ انْقَسَمَ الْجُنُودُ إِلَى فَرِيقَيْنِ : فَرِيقٌ يَتْبَعُ أَرْيَاطَ ، وَفَرِيقٌ يُؤَيِّدُ أَبْرَهَةَ .

وَبِهٰذَا الِانْقِسَامِ كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَزُولَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ حُكْمُ أَحَدِ الْقَائِدَيْنِ .

وَعَلَى هٰذَا سَارَ الْفَرِيقَانِ كُلٌّ مِنْهُمَا إِلَى ٱلْآخَرِ يَبْغِى قِتَالَهُ ، فَإِمَّا انْتَصَرَ ، وَإِمَّا انْهَزَمَ .

وَالْتَقَى فَرِيقُ أَرْيَاط وَعَلَى رَأْسِهِ ٱلْقَائِدُ أَرْيَاطُ ، بِفَرِيقِ أَبْرَهَةَ وَعَلَى رَأْسِهِ الْقَائِدُ أَبْرَهَةُ . وَتَقَابَلَ الْقَائِدَانِ وَجْهًا لِوَجْهٍ .

عِنْدَئِذٍ أَرْسَلَ أَبْرَهَةُ . إِلَى أَرْيَاطَ يَقُولُ :

إِنَّنَا لَا نَجْنِي شَيْئاً مِنْ وَرَاءِ صِدَامِ الْجُنُودِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ سِوَى أَنْ نُفْنِيَ جُنُودَ الْحَبَشَةِ دُونَ طَائِلٍ . اُبْرُزْ لِي أَنْتَ ، وَأَبْرُزُ لَكَ أَنَا ، فَأَيُّنَا أَصَابَ صَاحِبَهُ أَصْبَحَ قَائِدَ الْجُنُودِ جَمِيعِهَا ، وَحَاكِمَ الْيَمَنِ .

فَأَرْسَلَ أَرْيَاطُ يَرُدُّ عَلَى أَبْرَهَةَ قَائِلاً :

أَنْصَفْتَ بِمَا أَشَرْتَ بِهِ .

وَبَرَزَ أَرْيَاطُ إِلَى أَبْرَهَةَ ، وَكَانَ أَرْيَاطُ رَجُلاً طَوِيلًا وَسِيماً ، وَكَانَ أَبْرَهَةُ رَجُلاً قَصِيرًا غَلِيظاً مُكْتَنِزَ اللَّحْمِ . وَالْتَقَى الْقَائِدَانِ وَفِي يَدِ كُلٍّ مِنْهُمَا حَرْبَةٌ لِيُقَاتِلَ بِهَا غَرِيمَهُ .

وَوَقَفَ أَرْيَاطُ وَظَهْرُهُ إِلَى جُنْدِهِ ، وَوَقَفَ أَبْرَهَةُ وَمِنْ خَلْفِهِ عَسْكَرُهُ ، وَاسْتَعَدَّ الْمُتَنَازِلَانِ وَرَفَعَ كُلٌّ مِنْهُمَا حَرْبَتَهُ بِيَدِهِ ثُمَّ صَوَّبَهَا إِلَى غَرِيمِهِ ، وَقَذَفَ أَرْيَاط الطَّوِيلُ الشَّامِخُ بِحَرْبَتِهِ يَبْغِي إِصَابَةَ يَافُوخِ أَبْرَهَةَ فَوَقَعَتْ عَلَى جَبْهَتِهِ ، ثُمَّ انْحَدَرَتْ فَشَرَمَتْ حَاجِبَهُ وَعَيْنَهُ وَأَنْفَهُ وَشَفَتَهُ .

وَفِي هٰذِهِ اللَّحْظَةِ الَّتِي يَحْسَبُ فِيهَا أَرْيَاطُ أَنَّهُ قَدْ أَصَابَ مِنْ أَبْرَهَةَ مَقْتَلًا، وَأَنَّهُ قَدْ تَوَطَّدَ مَرْكَزُهُ عَلَى الْجَيْشِ، وَاسْتَقَرَّ حُكْمُهُ عَلَى الْيَمَنِ، مَرَقَتْ مِنْ خَلْفِ أَبْرَهَةَ حَرْبَةٌ اسْتَقَرَّتْ فِي قَلْبِ أَرْيَاطَ، وَأَصَابَتْ مِنْهُ مَقْتَلًا، وَكَانَ رَامِي الْحَرْبَةِ عَتْوَدَةُ غُلَامُ أَبْرَهَةَ الَّذِي كَانَ يَرْبُضُ خَلْفَهُ لِمُعَاوَنَةِ سَيِّدِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ!

وَرَأَى أَبْرَهَةُ أَرْيَاطَ يَسْقُطُ مُجَدَّلًا بِحَرْبَةِ غُلَامِهِ، وَسَمِعَ غُلَامَهُ يُهَلِّلُ فَرِحًا مُفَاخِرًا بِفِعْلِهِ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ قَائِلًا:

يَا عَتْوَدَةُ؛ إِنْ كُنْتَ قَتَلْتَ أَرْيَاطَ فَلَيْسَ عَلَيْنَا إِلَّا دِيَتُهُ، لَقَدْ خَدَمْتَنِي خِدْمَةً جَلِيلَةً، فَاحْتَكِمْ لَدَيَّ أُنَفِّذْ لَكَ مَا تَبْغِي وَمَا تَطْلُبُ.

قَالَ عَتْوَدَةُ:

حُكْمِي هُوَ أَنْ لَا تُزَفَّ عَرُوسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ إِلَى زَوْجِهَا حَتَّى تُزَفَّ لِي أَوَّلًا!

فَأَجَابَهُ أَبْرَهَةُ — وَإِنْ كَانَ قَدِ اسْتَنْكَرَ فِي نَفْسِهِ هٰذَا

الطَّلَبَ الْغَرِيبَ – لَكَ ذٰلِكَ .

وَانْضَمَّ جُنْدُ أَرْيَاطَ إِلَى جُنْدِ أَبْرَهَةَ ، وَفَرِحَ أَبْرَهَةُ بِذٰلِكَ ، وَقَدْ حَسِبَ أَنَّ الْأَمْرَ قَدِ اسْتَتَبَّ لَهُ فِي حُكْمِ الْيَمَنِ .

وَلٰكِنَّ نَجَاشِيَّ الْحَبَشَةِ غَضِبَ أَشَدَّ الْغَضَبِ عَلَى أَبْرَهَةَ حِينَ وَصَلَهُ خَبَرُ قَتْلِهِ لِعَامِلِهِ أَرْيَاطَ وَهَاجَ وَمَاجَ ، وَأَقْسَمَ أَلَّا يَسْكُتَ عَلَى أَبْرَهَةَ ، وَأَلَّا يَقْعُدَ عَنْهُ حَتَّى يَطَأَ أَرْضَ الْيَمَنِ ، وَيَجُزَّ نَاصِيَتَهُ ! !

وَبَلَغَ أَبْرَهَةَ مَا أَقْسَمَ بِهِ الْمَلِكُ ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ حَلَقَ شَعْرَ رَأْسِهِ جَمِيعاً ، وَلَفَّهُ فِي لُفَافَةٍ ، وَجَرَحَ أُصْبُعَهُ ، وَمَلَأَ مِنْ دَمِهِ زُجَاجَةً ، وَعَبَّأَ كِيساً بِتُرَابٍ مِنْ أَرْضِ الْيَمَنِ ثُمَّ أَرْسَلَ هٰذِهِ الْأَشْيَاءَ الثَّلَاثَةَ مَعَ رَسُولٍ يَحْمِلُ كِتَاباً لِنَجَاشِيِّ الْحَبَشَةِ يَقُولُ فِيهِ أَبْرَهَةُ لِلنَّجَاشِي :

لَا تَغْضَبْ عَلَيَّ ، فَإِنَّمَا أَرْيَاطُ كَانَ عَبْدَكَ ، وَأَنَا عَبْدُكَ ، فَاخْتَلَفْنَا فِي أَمْرِكَ ، وَكُلٌّ مِنَّا طَاعَتُهُ لَكَ ، إِلَّا أَنِّي كُنْتُ أَقْوَى مِنْهُ عَلَى أَمْرِ الْيَمَنِ ، وَأَضْبَطَ لِسِيَاسَتِهَا ؛ وَقَدْ حَلَقْتُ رَأْسِي

كُلَّهُ ، وَأَرَقْتُ دَمِي ، لَمَّا بَلَغَنِي قَسَمُكَ ، وَقَدْ أَرْسَلْتُ لَكَ تُرَابًا مِنْ أَرْضِ الْيَمَنِ لِتَضَعَهُ تَحْتَ قَدَمَيْكَ ؛ وَبِذَٰلِكَ يَكُونُ الْمَلِكُ قَدْ بَرَّ بِقَسَمِهِ ، وَتَحَلَّلَ مِنْهُ ، وَوَطِئَ بِقَدَمَيْهِ أَرْضَ الْيَمَنِ . . .

وَبِذَٰلِكَ رَضِيَ النَّجَاشِيُّ عَلَى أَبْرَهَةَ ، وَأُعْجِبَ بِحِيلَتِهِ ، وَحُسْنِ سِيَاسَتِهِ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ يَقُولُ :

اُثْبُتْ عَلَى عَمَلِكَ بِأَرْضِ الْيَمَنِ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي !

حِينَئِذٍ أَيْقَنَ أَبْرَهَةُ أَنَّ الْجَوَّ قَدْ خَلَا لَهُ وَصَفَا ، فَأَقْبَلَ عَلَى الْيَمَنِ يَسُوسُهَا بِسِيَاسَةٍ تَعُودُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْحَبَشَةِ وَعَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ بِالْخَيْرِ وَالْمَنْفَعَةِ .

٤

اِشْتَهَرَ أَبْرَهَةُ بِالْأَشْرَمِ ، وَعُرِفَ بِهٰذَا اللَّقَبِ بَعْدَ أَنْ شَرَمَ وَجْهَهُ أَرْيَاطُ بِحَرْبَتِهِ ، وَتَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى أَنْ يَتَّخِذَ لَهُ زَوْجَةً جَمِيلَةً مِنْ نِسَاءِ الْيَمَنِ . وَبَلَغَهُ مِقْدَارُ مَا تَتَمَتَّعُ بِهِ رَيْحَانَةُ بِنْتُ ذِي جَدَنٍ زَوْجَةُ أَبِي مُرَّةَ بْنِ ذِي يَزَنَ الْحِمْيَرِيِّ مِنْ جَمَالٍ رَائِعٍ ، وَمَلَاحَةٍ فَاتِنَةٍ ؛ فَرَغِبَ فِيهَا ، وَأَرْسَلَ رُسُلَهُ فَانْتَزَعُوهَا مِنْ مَنْزِلِ زَوْجِهَا أَبِي مُرَّةَ بْنِ ذِي يَزَنَ وَمَعَهَا طِفْلُهَا مَعْدِيكَرِبُ ابْنُ أَبِي مُرَّةَ ، وَأَتَوْا بِهَا إِلَى قَصْرِهِ ، فَاتَّخَذَهَا أَبْرَهَةُ أَمَةً لَهُ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَبُو مُرَّةَ — وَهُوَ مِنْ أَشْرَافِ رِجَالِ الْيَمَنِ — الْبَقَاءَ بِدَارِهِ بِأَطْرَافِ صَنْعَاءَ بَعْدَ سَبْيِ امْرَأَتِهِ وَانْتِزَاعِهَا مِنْ دَارِهِ ، فَهَاجَرَ إِلَى دَاخِلِ بِلَادِ الْيَمَنِ ، وَهَامَ فِي صَحْرَاءِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ يُرِيدُ تَأْلِيبَ الْقَبَائِلِ ضِدَّ أَبْرَهَةَ وَضِدَّ الْحَبَشَةِ ، فَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ وَلَمْ يَدْرِ أَحَدٌ مَاذَا كَانَ مَصِيرُهُ . . . !

وَبَقِيَتْ رَيْحَانَةُ بِقَصْرِ أَبْرَهَةَ تَحِنُّ إِلَى أَيَّامِهَا الْخَوَالِي بِجَانِبِ

زَوْجِهَا الشَّابِ الْجَمِيلِ النَّبِيلِ أَبِي مُرَّةَ ، وَلٰـكِنْ ، هَيْهَاتَ أَنْ يَعُودَ مَا مَضَى أَوْ أَنْ تَنْفَعَ الذِّكْرَى . . ! !

وَوَلَدَتْ رَيْحَانَةُ لِأَبْرَهَةَ وَلَدًا ، هُوَ مَسْرُوقٌ ، وَبِنْتًا هِيَ بِسْبَاسَةُ ، وَكَانَ لِأَبْرَهَةَ مِنْ قَبْلُ وَلَدٌ مِنْ زَوْجَةٍ حَبَشِيَّةٍ اسْمُهُ يَكْسُومُ ، وَبِهِ كَانَ يُكْنَى أَبْرَهَةُ ، فَيُسَمَّى أَبَا يَكْسُومَ .

وَفِي ذٰلِكَ الْحِينِ كَانَ عَتْوَدَةُ غُلَامُ أَبْرَهَةَ الَّذِي قَتَلَ أَرْيَاطَ قَدْ قُتِلَ ، فَقَدْ أَنِفَ رِجَالُ الْيَمَنِ أَنْ تُزَفَّ إِلَيْهِ بَنَاتُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ قَبْلَ أَنْ يُزَفَّفْنَ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ ، كَمَا احْتَكَمَ بِذٰلِكَ لَدَى أَبْرَهَةَ فَتَرَبَّصُوا لَهُ وَقَتَلُوهُ دُونَ أَنْ يُبَالُوا بِمَا يُصِيبُهُمْ مِنْ سُخْطِ أَبْرَهَةَ وَغَضَبِهِ .

وَلٰـكِنَّ أَبْرَهَةَ كَانَ رَجُلًا حَلِيمًا ، سِيَاسِيًّا ، وَاسِعَ الصَّدْرِ فَلَمْ يُظْهِرْ غَضَبًا لِقَتْلِ غُلَامِهِ عَتْوَدَةَ ، بَلْ قَالَ لِرِجَالِ الْيَمَنِ :

قَدْ آنَ لَكُمْ يَاأَهْلَ الْيَمَنِ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ رِجَالٌ أَقْوِيَاءُ شُرَفَاءُ ، يَأْنَفُونَ مِمَّا يَأْنَفُ مِنْهُ الرِّجَالُ ، إِنِّي وَاللّٰهِ لَوْ عَلِمْتُ حِينَ حَكَّمْتُ عَتْوَدَةَ أَنَّهُ يَسْأَلُ الَّذِي سَأَلَ مَا حَكَّمْتُهُ ، وَلَا

أَنْعَمْتُهُ عَيْنًا ، وَايْمُ اللهِ لَا يُؤَاخِذُكُمْ فِي قَتْلِهِ مُؤَاخِذٌ ، وَلَنْ يَنَالَكُمْ مِنِّي شَيْءٌ تَكْرَهُونَهُ .

وَهٰكَذَا مَرَّتِ السِّنُونَ وَأَبْرَهَةُ يَتَّبِعُ سِيَاسَةَ الْحِلْمِ ، وَسَعَةِ الصَّدْرِ ، حَيْثُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا وَاسِعَ الصَّدْرِ ؛ وَيَتَّبِعُ سِيَاسَةَ الشِّدَّةِ وَالْحَزْمِ حَيْثُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ شَدِيدًا حَازِمًا ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ أَوْ رَغِبَ فِي شَيْءٍ كَانَ لَهُ وَلِبَلَدِهِ وَلِدِينِهِ نَفْعٌ فِيهِ .

فَقَدْ رَأَى أَبْرَهَةُ أَهْلَ الْيَمَنِ فِي مَوَاسِمَ مُنْتَظِمَةٍ يُجَهِّزُونَ أَنْفُسَهُمْ بِجَهَازٍ ، وَيُعِدُّونَ مَتَاعًا ، ثُمَّ يَرْحَلُونَ فِي قَوَافِلَ كَبِيرَةٍ يَنْضَمُّ إِلَيْهَا فِي أَثْنَاءِ سَيْرِهَا الْكَثِيرُونَ مِنْ عَرَبِ الْقَبَائِلِ ، وَالْكُلُّ قَدْ جَهَّزَ نَفْسَهُ بِالزَّادِ الَّذِي يَكْفِيهِ لِرِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ ، فَسَأَلَ : إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ هٰؤُلَاءِ النَّاسُ ؟ !

قِيلَ لَهُ : يَحُجُّونَ إِلَى بَيْتِ اللهِ بِمَكَّةَ .

سَأَلَ : وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ أُقِيمَ هٰذَا الْبَيْتُ ؟

قِيلَ : أُقِيمَ مِنْ حِجَارَةٍ .

قَالَ : أَحِجَارَةٌ عَادِيَّةٌ عَارِيَةٌ ، أَمْ حِجَارَةٌ مَكْسُوَّةٌ ؟

أُجِيبَ : حِجَارَةٌ بِالْوَصَائِلِ ، وَهِيَ أَقْمِشَةٌ مُخَطَّطَةٌ مِنْ نَسِيجِ الْيَمَنِ ، تُرْسَلُ لِكُسْوَتِهَا مُنْذُ أَمَرَ بِإِرْسَالِهَا إِلَى مَكَّةَ وَكُسْوَةِ بَيْتِ اللهِ بِهَا أَحَدُ مُلُوكِ الْيَمَنِ السَّابِقِينَ : تُبَّانُ أَسْعَدَ أَبُو كَرِبٍ ، وَذَلِكَ حِينَ رَأَى فِي مَنَامِهِ أَنْ يَكْسُوَ الْكَعْبَةَ .

وَفَكَّرَ أَبْرَهَةُ فِيمَا سَمِعَ ، ثُمَّ قَالَ :

وَالْمَسِيحِ لَأَبْنِيَنَّ لَكُمْ بَيْتًا خَيْرًا مِنْهُ !

وَشَغَلَ هٰذَا الْأَمْرُ فِكْرَ أَبْرَهَةَ ، وَمَا عَادَ لَهُ فِي صَحْوِهِ وَنَوْمِهِ مِنْ خَاطِرٍ إِلَّا أَنْ يَعْمَلَ عَلَى بِنَاءِ بَيْتٍ يَصْرِفُ بِهِ أَهْلَ الْيَمَنِ وَالْعَرَبَ قَاطِبَةً عَنِ الْحَجِّ إِلَى مَكَّةَ !

فَكَتَبَ إِلَى قَيْصَرِ الرُّومِ يُعَرِّفُهُ أَنَّهُ يُرِيدُ بِنَاءَ كَنِيسَةٍ بِصَنْعَاءَ ، يَبْقَى أَثَرُهَا وَذِكْرُهَا عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُعَاوِنَهُ فِي ذٰلِكَ فَأَرْسَلَ لَهُ الْقَيْصَرُ الْمُهَنْدِسِينَ وَالصُّنَّاعَ وَمَدَّهُ بِكَثِيرٍ مِنْ أَدَوَاتِ الْبِنَاءِ ، وَأَعَانَهُ بِخَامَاتٍ نَادِرَةٍ مِنَ الْفُسَيْفِسَاءِ وَالْمَرْمَرِ وَالرُّخَامِ .

وَنَشطَ الْعُمَّالُ فِى بِنَاءِ الْكَنِيسَةِ عَلَى قَدَمٍ وَسَاقٍ ، وافْتَنَّ الْمُهَنْدِسُونَ فِى هَنْدَسَتِهَا ، وَتَبَارَى الصُّنَّاعُ فِى تَجْمِيلِهَا وَزخرَفَتِهَا ، فَصُفَّتْ لَهَا الْأَعْمِدَةُ الرُّخَامِيَّةُ ذَوَاتُ الْأَلْوَانِ الْمُتَعَدِّدَةِ ، وَنُصِبَتْ فِيهَا الصُّلْبَانُ الذَّهَبِيَّةُ ، وَرُصِفَتْ أَرْضُهَا بِالْفُسَيْفِسَاءِ وَالْمَرْمَرِ ، وَنُقِشَتْ سُقُفُهَا ، وَمُوِّهَتْ جُدْرَانُهَا بِمَاءِ الذَّهَبِ ، وَرُصِّعَتْ بِدُرَرِ الْيَوَاقِيتِ وَالْجَوْهَرِ ، الَّتِى نُزِعَتْ وَجُلِبَتْ لَهَا مِنْ شَتَّى قُصُورِ مُلُوكِ الْيَمَنِ وَحُصُونِهِمْ ، وَمِنْ بَيْنِهَا الْجَوَاهِرُ الثَّمِينَةُ الْغَالِيَةُ النَّادِرَةُ الَّتِى كَانَ يُرَصَّعُ بِهَا عَرْشُ الْمَلِكَةِ بِلْقِيسَ مَلِكَةِ سَبَأٍ ، وَالَّتِى كَانَتْ مَضْرِبَ الْأَمْثَالِ فِى نَفَاسَتِهَا وَرَوْعَتِهَا فَتَوَارَثَهَا مُلُوكُ الْيَمَنِ مَلِكاً بَعْدَ مَلِكٍ ، ثُمَّ كَانَ مَصِيرُهَا أَنْ حُلِّيَتْ بِهَا كَنِيسَةُ الْقَلِيسِ الَّتِى بَنَاهَا أَبْرَهَةُ !

وَأَخِيراً تَمَّ لِأَبْرَهَةَ مَا أَرَادَ ، فَتَمَّ بِنَاءُ كَنِيسَةِ الْقَلِيسِ ، وَكَانَتْ كَنِيسَةً لَمْ يُبْنَ إِلَى زَمَنِهَا كَنِيسَةٌ مِثْلُهَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ؛ عِنْدَئِذٍ أَرْسَلَ أَبْرَهَةُ إِلَى مَلِكِ الْحَبَشَةِ كِتَاباً يَقُولُ

لهُ فيهِ : قدْ بنيتُ لكَ كنيسةً لمْ يُبْنَ مِثْلُهَا لِملِكٍ مِنْ قَبْلُ ، وَلَسْتُ بمُنْتَهٍ حتَّى أَصْرِفَ إليْهَا حُجَّاجَ الْعَرَبِ .

وَسَرَى نبأُ كتابِ أَبْرَهَةَ إلَى النَّجَاشِيِّ بيْنَ الْعَرَبِ ، فتحدَّثوا بهِ ، وتناقَلُوا خبرَهُ ، وَغَضِبَ كثيرٌ مِنْهُمْ ، وثارُوا ، وَسَخِطُوا ، وَزَادَ رَجُلٌ مِنْ عرَبِ بَنِي كِنانَةَ فسَارَ إلَى الْيَمَنِ ، وَأَتَى الْكَنِيسةَ ليْلًا ، فَأَحْدَثَ فِيهَا ، وَلَطَّخَ مِحْرابَهَا بِالجِيَفِ وَالْأَقْذَارِ ، ثمَّ انْصَرَفَ عائدًا إلى أَرْضِهِ .

وَفِي الصَّبَاحِ شاهَدَ حُجَّابُ الْكَنِيسَةِ ما فَعَلَ الرَّجُلُ الْعَرَبِيُّ بهَا ، فَطيَّرُوا الْخَبَرَ إلَى أَبْرَهَةَ ، فثَارَ وَغَضِبَ ، وَطَلَبَ أَنْ يُتَحَرَّى لَهُ فِي الْحَالِ عَنْ فَاعِلِ هٰذِهِ الْفَعْلَةِ الشَّنِيعَةِ ؛ فَجَاءَهُ الْخَبَرُ أَنَّ فَاعِلَهَا رَجُلٌ عَرَبِيٌّ مِنْ بَنِي كِنانَةَ ، غَضِبَ لَمَّا سَمِعَ قَوْلَكَ : سَأَصْرِفُ حُجَّاجَ الْعَرَبِ عَنْ بَيْتِهِمُ الَّذِي يَحُجُّونَ إلَيْهِ إلى الْبَيْتِ الَّذِي بَنَيْتَهُ . فَجَاءَ إليْهِ يُلَطِّخُهُ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ بذٰلِكَ : إِنَّ هٰذَا الْبَيْتَ لَيْسَ أَهْلًا لِلْحَجِّ والزِّيَارَةِ . فَغَضِبَ أَبْرَهَةُ لِهٰذَا الْحَادِثِ غَضَبًا شَدِيدًا ، جَلَّ عَنْ أَنْ يُوصَفَ !

أَيَبْنِى كَنِيسَةَ الْقَلِيسِ الَّتِى مَا بُنِىَ بِنَاءٌ مِثْلُهَا مِنْ قَبْلُ ، وِيُرَصِّعُهَا بِالدُّرِّ الْغَالِى وَالْجَوْهَرِ النَّفِيسِ ، وِيَحْرِقُ فِى قَنَادِيلِهَا يَوْمِيًّا مِنَ الْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ مَا تُوَازِى قِيمَتُهُ مَبْلَغًا كَبِيرًا مِنَ الْمَالِ ، وِيُخَصِّصُ لَهَا الْحُجَّابَ وَالْخَدَمَ — لِيَأْتِىَ رَجُلٌ مِنْ أَجْلَافِ الْعَرَبِ فَيَحُطَّ مِنْ قِيمَتِهَا ، يُرِيدُ أَنْ يَصْرِفَ النَّاسَ عَنْهَا ، مُسْتَخِفِّينَ بِهَا ، سَاخِرِينَ مِنْ بُنْيَانِهَا . . ؟ ! !

إِنَّ هٰذَا لَنْ يَكُونَ . . ! !

وَأَذَاعَ أَبْرَهَةُ فِى طُولِ الْبِلَادِ وَعَرْضِهَا أَنَّهُ لَا حَجَّ إِلَّا إِلَى بَيْتِكُمُ الْجَدِيدِ ، وَلَا مَزَارَ إِلَّا إِلَى كَنِيسَةِ الْقَلِيسِ . . !!

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَهْلِ كِنَانَةَ عَامِلًا لَهُ مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ ، أَمَّرَهُ عَلَى بَعْضِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، اسْمُهُ مُحَمَّدُ بْنُ خُزَاعِى ، يَدْعُوهُمْ إِلَى حَجِّ الْقَلِيسِ ؛ فَمَا كَانَ مِنْ أَهْلِ كِنَانَةَ إِلَّا أَنْ سَلَّطُوا عَلَيْهِ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ عُرْوَةُ بْنُ حِيَاضٍ ، فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ .

عِنْدَئِذٍ لَمْ يَبْقَ لَدَى أَبْرَهَةَ مَوْضِعٌ لِصَبْرٍ ، وَلَا مَحَلٌّ لِحِلْمٍ أَوْ لِرَأْفَةٍ ، فَنَادَى أَنْ : لَا بُدَّ مِنْ هَدْمِ بَيْتِ الْعَرَبِ الَّذِى

يَحُجُّونَ إِلَيْهِ ، وَلا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ عَلَى تَقْوِيضِهِ وَإِزَالَتِهِ .

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلى مَلِكِ الْحَبَشَةِ يُخْبِرُهُ بِمَا اعْتَزَمَ أَنْ يَفْعَلَ ، وَيَقُولُ لَهُ : أَرْسِلْ إِلَيَّ فِيلَكَ الَّذِى اسْمُهُ مَحْمُودٌ لِيُكْتَبَ لِى بِهِ النَّصْرُ والظَّفَرُ !

فَكَانَ رَدُّ النَّجَاشِيِّ عَلَيْهِ :

افْعَلْ مَا اعْتَزَمْتَ أَنْ تَفْعَلَ ، والْأَمْرُ مُفَوَّضٌ لَكَ !

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِيلَهُ الْكَبِيرَ الضَّخْمَ الَّذِى اسْمُهُ مَحْمُودٌ ، وهُوَ فِيلٌ كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْتَزُّ بِهِ، وكَانَ يَرْكَبُهُ فِى الْحُرُوبِ فَيُكْتَبُ لَهُ الْفَوْزُ والنَّصْرُ !

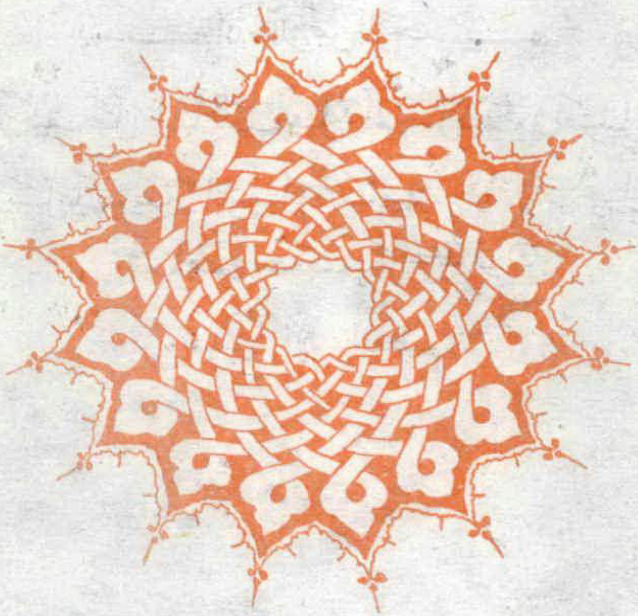
ولَمْ يَكْتَفِ النَّجَاشِيُّ بِإِرْسَالِ الْفِيلِ ، بَلْ أَرْسَلَ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الْجُنْدِ الْمُدَرَّبِينَ عَلَى الْحُرُوبِ مِنْ رِجَالِ الْحَبَشَةِ .

وَجَدَّ أَبْرَهَةُ فِى الِاسْتِعْدَادِ لِلسَّيْرِ إِلَى مَكَّةَ ، فَأَعَدَّ لِذٰلِكَ جَيْشًا عَظِيماً مِنْ أَبْنَاءِ الْحَبَشَةِ ، جَهَّزَهُمْ بِالْعُدَّةِ والْعَتَادِ ؛ ثُمَّ سَارَ فِى مُقَدَّمَتِهِمْ ومَعَهُ الْفِيلُ مَحْمُودٌ مُتَّجِهِينَ نَحْوَ الشَّمالِ كَىْ يَغْزُوا مَكَّةَ ، ويَهْدِمُوا كَعْبَتَهَا : بَيْتَ اللهِ الْحَرَامَ . . . ! !

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ②
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④
فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ⑤

صدق الله العظيم



مجموعة القصص الدينية

تتضمن هذه المجموعة قصصاً شائقة ، فيها تنوير للقلب ، ودعوة إلى الحق ، وإيمان بالمبدأ ، واتصال بالله . جرت حوادثها مع رجال غلبت عليهم الروحانية ، وأعلنوا الحق غير مبالين أن يصيبهم ما يصيبهم ، ولو كان فيه تلف نفوسهم : فهى الشجاعة فى إبداء الرأى ، ونصرة الحق ، والأخذ بيد المظلوم ، وهى ثورة على الفساد ، ومحاربة الطغيان ! ثم انتصار الحق والفضيلة والخلق الكريم .

١ – قابيل وهابيل	١١ – عام الفيل
٢ – سبأ	١٢ – زمزم
٣ – ذو القرنين	١٣ – مؤمن آل فرعون
٤ – قارون	١٤ – طالوت وجالوت
٥ – موسى والخضر	١٥ – العزير وحماره
٦ – بقرة بنى إسرائيل	١٦ – شكر النعمة
٧ – أصحاب القرية	١٧ – الإسراء والمعراج
٨ – أهل الكهف	١٨ – سدرة المنتهى
٩ – أصحاب الأخدود	١٩ – بائع الأمراء
١٠ – أصحاب الفيل	٢٠ – جريج العابد

ثمن النسخة ٣ قروش

دار المعارف

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة